الاستقبالُ الأدبي وتحوّلات مسار النّقد الروائي العربي

بن الشيخ عبد الغني، جامعة المسيلة، الجزائر

ملخّص:
عرف النّقد العربي المعاصر تحوّلات هامة نتيجة انفتاحه وتأثّره بالنقد الغربي ومنجزاته، غير أنّ ذلك طرح مزيدا من الصعوبات على مستوى التطبيق النقدي،وبخاصة في حقل النقد الروائي، من جانب أن الرواية العربية تتميّز عن الرواية الغربية بخصوصيتها اللّسانية والأسلوبية والثقافية، مما يستدعي التفكير في نظرية روائية عربية، تناسب الرواية العربية في سياقها وخصوصياتها، في هذا السياق يسعى هذا المقال إلى إبراز حالة النقد الروائي العربي المعاصر في تأثره بالنقد الغربي .

Résumé :
La critique arabe contemporaine a connu une évolution considérable par le biais des emprunts et influences de la critique occidentale. Toutefois, cela pose d'avantage de difficultés au niveau de la pratique littéraire, en particulier dans le champs de la critique romanesque, étant donné que le roman arabe se distingue du roman occidental par ses particularités linguistiques, stylistiques et culturelles, d'où la nécessite d'une réflexion sur une théorie romanesque propre au roman arabe. Cet article tente dans ce contexte de dessiner les contours de l'etat de la critique romanesque arabe sous l'influence de la critique occidentale.

***

أولا: الاستقبال النّقدي والرؤية المضطربة

شهدت حركة النّقد الأدبي العالمي ـ على مدار القرن العشرين ـ تحوّلات كبيرة، بداية من الثورة المنهجية التي أحدثها الشكلانيون الروس، ومرورا بمنجزات حلقة براغ في مجال البحث اللغوي وما عرفته اللّسانيات الأمريكية من تطور، ثم ظهور البنيوية التي بسطت نفوذها إلى أبعد الحدود، وصولاً إلى التفكيك الذي توّج اتجاهه بتجاوز المعيارية مُطوِّرا السيميولوجيا نحو آفاق جديدة في الكشف، واستكناه ما هو مغيّب في الخطاب الفلسفي والأدبي وكذلك التاريخي[1] مما أدى إلى انحصار مناهج نقدية، وبروز مناهج وتيارات أخرى بديلة، فرضت وجودها نتيجة التراكم المعرفي وإخفاق بعض المناهج المألوفة في فرض استمرار وجودها، والتي لم يعد لها من تأثير ولا أهمية لدى النّقاد.

ولم يكن النقد العربي المعاصر بمنأى عن التأثر بتلك التحوّلات والمنجزات الغربية في مجال النقد، بمختلف تياراته ومناهجه ، عن طريق الاستقبال الذي كانت الترجمة قناة أساسية من قنواته، إضافة إلى الاحتكاك المباشر وغير المباشر بالثقافة الغربية بمختلف توجّهاتها، وإنْ كان ذلك الاستقبال قد أوجد إشكالات عديدة، عرقلت مسار التطوّر الطبيعي للنقد العربي، نظرا لاختلاف البيئة الثقافية العربية عن البيئة الثقافية الغربية.

من ناحية أخرى، يُلاحظ الباحثون أنَّ من أهم الأسباب الرئيسية للاضطراب الحاصل في المناهج النقدية العربية المعاصرة أنّ "المسار النقدي الغربي ظل هو الذي يوجّه النقد الأدبي، ويفرض عليه في كل مرحلة إبدالاته الخاصة والمتجدّدة، ولما كانت هذه الإبدالات تصل إلينا متأخرة كنا مضطرين إلى ملاحقتها ومواصلة متابعة الإبدالات الجديدة، على إيقاع متواتر خارجي عنّا"[2] كما يذهب إليه سعيد يقطين، علما أنّ الاضطراب المشار إليه ليس مقصورا على النقد الأدبي العربي دون غيره من المجالات الثقافية الأخرى، بل يتعدّى ذلك ليكون سمة من سمات الثقافة العربية المعاصرة بشموليتها، في مواجهتها للمعطى الثقافي الغربي، بتعدّد تياراته الفلسفية وتراكماته النظرية والعلمية.[3]

ورغم ما يبدو وأنه بات يُشكِّل مأزقا حقيقيا بالنسبة للنقد العربي المعاصر فإنّ ذلك من ناحية أخرى يبدو شيئا طبيعيا، بالنظر إلى التحوّلات العميقة التي ظل يشهدها النقد العربي منذ مطلع القرن العشرين، نتيجة المثاقفة والاحتكاك بالأدب الغربي، وهو مظهر تزداد حدّته يوما بعد يوم.

يقول كمال عبد اللطيف "من المعروف أنّ زمن المثاقفة الحاصلة في العالم العربي، منذ منتصف القرن الماضي وإلى يومنا هذا، قد اتّسم بطغيان الهيمنة الغربية في مختلف مجالات الوجود المجتمعي في الإقتصاد والسياسة والتقنية، وكان لهذه المسألة أثرها القوي في المستوى الفكري، مما ولّد مواقف فكرية حادّة ومتقاطعة،كما ولّد الإنتقائية و الإزدواجية، وهما ملمحان بارزان في الخطاب العربي المعاصر".[4]

أمَّا ونحن في عصر الترجمة والثورة التكنولوجية فقد بات الاستقبال ضرورة حتمية ينبغي توجيهها وتكييفها وفق ثقافة البيئة المستقبلة، وفي هذا يذهب أدونيس إلى أنه "لا غنى للذات عن الآخر، لكن ليس تحت راية الائتلاف وإنما تحت راية الاختلاف"[5] والآخر في مجال النقد نعني به الغرب.

ولا يتحقّق الإختلاف المشار إليه إلا بإدراك الذات لمقوِّماتها وأوضاعها، لذا يرى أدونيس دائما "أنّ اضطرابنا في معرفة الآخر يعكس اضطرابنا في معرفة الذات، فلا يمكن أن نعرف الآخر معرفة حقّة، إذا لم نعرف ذاتنا معرفة حقّة، وإنها لمفارقة أن يكون الآخر الغربي اليوم أكثر معرفة بنا منا، والسبب في ذلك هو أنّه يعرف ذاته معرفة عميقة، وهذا يمكنه من معرفتنا بوصفنا آخر معرفة عميقة"[6]

فالمشكل ـ إذن ـ لا يكمن في فعل الاستقبال في حدّ ذاته، بمعنى أنْ نتفاعل أو لا نتفاعل مع الوارد إلينا من الغرب، وإنما في كيفية الوصول إلى تحقيق تفاعل إيجابي مع المعرفة الغربية الوافدة بصورة تجعلنا ـ كما يذهب إلية سعيد يقطين ـ قادرين على الإفادة من تلك المعرفة من ناحية، ومساهمين في المعرفة الإنسانية من ناحية أخرى". [7]إذِ الأخطر فيما يُلاحَظ من خلال توجّهات النقد العربي المعاصر أنّ "من أبرز سمات ذلك الاستقبال هو تبني وجهة نظر الآخر، بوصفها وجهة نظر عالمية صحيحة، ليس في معرفة الآخر وإنما في معرفة الذات أيضا."[8]

ويُرجِع سعيد يقطين سبب ذلك إلى الاكتفاء بالاستقبال والاطمئنان للوافد، دون محاولة التفاعل الإيجابي مع ما يرد إلينا من خارج سياقنا الثقافي مع غياب عنصر الإنتاج، وهو يقول في شأن ذلك: " إذا كانت المعرفة النظرية التي نستند إليها في عملنا النقدي تأتينا عن طريق التلقي فهي في الغرب وليدة عملية إنتاج، وبين التلقي والإنتاج مسافة بعيدة، وإذا كان المسار النقدي العربي يطبعه الانقطاع فهو في الغرب نتاج تحوّل."[9]

غير أنه من الإنصاف الإقرار بما حقّقه النقد العربي من تحوّلات منهجية،كان لها أثرها الكبير في إبراز العناصر البنائية والجمالية في النصوص الأدبية،كما هو الحال بالنسبة للرواية العربية، التي بات لها حضور جلي بين مثيلاتها في الأدب العالمي، بفضل الاحتكاك والإفادة من تجربة الآخر، ونتيجة تعريف النّقاد بها، وإخراجها من حيزها الإقليمي الضيق إلى آفاق عالمية واسعة.

لقد سعى النقد العربي المعاصر إلى تحديث آليات النقد المألوفة بإدراج مفاهيم ومناهج ذات طابع علمي محدد، ويجعل من لغة النقد لغة أشد ميلا إلى العقل والموضوعية منه إلى لغة الانطباعات أو التأثيرات الوجدانية، في عصر سيطرت فيه النزعة العلمية[10] وبات لزاما على الناقد الإلتزام بمنهج نقدي واضح يستند إلى أسس تنظم عملية النقد ومفاهيم يعتمد عليها في دراسة النص الأدبي وإجلاء خصوصياته، وصولا إلى طرح الأحكام التقييمية التي غالبا ما يكون لها شأنها حينما تصدر عن ناقد متمرّس خبير، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من النصوص الروائية العربية، التي ساهم النقاد في إجلاء نواحي التميز الإبداعي الروائي فيها، فساهم ذلك بالتعريف بها أكثر مما كانت عليه ، بل وساهم في مضاعفة عدد قرائها ونقادها، ومنها خماسية " مدن الملح " لعبد الرحمن منيف، و"الزيني بركات" لجمال الغيطاني و"المجوس" لإبراهيم الكوني وغيرها من الروايات، مما يجعل الحاجة إلى التنظير الروائي الملائم لسياق الرواية العربية المعاصرة أمرا ملحّا.

ثانيا: إشكالية مشروع بناء نظرية روائية عربية

لعلّ أهم جنس أدبي عرفه العصر الحديث هو الرواية، ولعلّ الرواية هي أهم جنس عرفه الأدب العربي الحديث،إلى الحد الذي احتلت فيه المكانة التي ظل يحتلها الشعر في الأدب العربي لمدة طويلة جدا[11] ومكانة الشعر تلك ـ في الأدب العربي ـ هي التي جعلت

الرواية العربية في بداية نشأتها نوعا منبوذا دخيلا، لكن سرعان ما فتئت ـ وبشكل متسارع ـ أن فرضت وجودها ومكانتها التي هي عليها من قبل، يقول جابر عصفور: "لقد تغيّر التراتب التقليدي بين الأنواع الأدبية، وانسحب الشعر عن عرشه الذي ظل متربّعا عليه طويلا، بوصفه سيد الأنواع الأدبية، وتعدّل التراتب لتصعد الرواية، هذا الفن الجديد الذي كان محمد حسين هيكل يخجل من الانتساب إليه"[12] إذْ كانت الذهنية القرائية في بداية ظهور الرواية العربية تعتبر الرواية بدعة مفسدة للأذواق والأخلاق.

ويحيل جابر عصفور أسباب ذلك الانقلاب الأدبي ـ ضد الشعر في صالح الرواية ـ إلى التحولات الاجتماعية والثقافية الكبرى، التي باتت تميّز الحياة العربية الحديثة، خاصة بعد انكسار المشروع القومي وتراجعه، إثر هزيمة حزيران في العام السابع والستين من القرن العشرين، وما فرضه ذلك من بحث مجدّد عن الهوية الفردية و الاجتماعية والإبداعية.[13]

وهيمنة الرواية كجنس الأدبي حديث بهذا الشكل لا يُعدُّ حسب رأي جابر عصفور من قبيل المصادفة ،وهي ليست ظاهرة عربية معزولة بل هي ظاهرة أدبية عالمية، لِما باتت تشكله الرواية من دور وظيفي في المشهد الإبداعي العالمي بوجه عام، والمشهد العربي بوجه خاص، فقد أصبحت الرواية النوع الأدبي السائد في عصر المفارقات والتحوّلات، والفن القادر على رصد زخم ذلك التحوّل بكل متناقضاته وتوجهاته.[14]

ونحن إذا تتبعنا مسار تطوّر الرواية في أشكالها يتبيّن لنا أنه ـ من ناحية أخرى ـ لا يمكن الفصل بين مسار تطوّر الرواية العربية منذ نشأتها وبين مسار النقد الروائي العربي في تحولاته ومستجداته.

فقد تميّزت كل مرحلة من مراحل تطوّر الرواية العربية ـ على مدار القرن العشرين ـ بهيمنة منهج أو مناهج نقدية سايرت ذلك التطوّر، كما ساهمت في توجيهه، ولعل الاختلاف حول جذور الرواية العربية في حد ذاته، كان مبعثا على الاهتمام أكثر بالبحث في خصوصيات الرواية العربية وعلاقتها بالرواية الغربية.

في هذا الشأن اختلفت الآراء والتصورات عند الباحثين والروائيين العرب ـ على حد سواء ـ حول موضوع نشأة الرواية العربية، بين من ينظر إليها على أنها شكل أدبي مستحدث في تاريخ الأدب العربي ، فهو في أصله نوع أدبي غربي خالص، أوجدته في الأدب العربي معطيات كثيرة، وبين من ينظر إلى الرواية العربية على أنها امتداد للقص التراثي في أشكاله المختلفة، فقد تطورت الرواية حسب وجهة نظر هذه الفئة عن المرويات السردية القديمة، أما الفئة المعتدلة فتذهب إلى القول بأن ظهور الرواية كان نتاج عملية الدمج والتفاعل، الذي حدث بين الثقافتين العربية والغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.[15]

وقد كان هذا الاختلاف في حدّ ذاته سببا في الاختلاف حول ملاءمة أو عدم ملاءمة المناهج النقدية الغربية لنقد الرواية العربية، وتحديد سماتها الأسلوبية والبنائية،غير أنّ

الظاهر أنّ فئة الباحثين والنقاد التي ظلت متشبثة بفكرة الجذور التراثية للرواية العربية،لم يشفع لها ذلك في بناء نظرية أو وضع مناهج عربية تجسّد رؤية أولئك النقاد.

من ناحية أخرى لم يتمكن أنصار الفئة الثانية من تجاوز المناهج النقدية الغربية في تطبيقها على النصوص الروائية العربية، بالرغم من أن لا أحد يمكنه التّنكر لخصوصية السياق الثقافي للرواية العربية، حتى وإن تجلت في شكلها الظاهري على أنها لا تختلف كثيرا في بنائها الفني عن البناء الفني للرواية الغربية.

ولذا، فإنّ أهم أحد المشكلات العويصة التي لا يزال تواجهها الحياة الثقافية العربية عموما والحركة النقدية خصوصا، لا تكمن في حجم الكم المعرفي والثقافي الذي تسرّب إلينا من الثقافة الغربية أو في مدى حاجتنا إلى المزيد من المعرفة والانفتاح على الآخر، وإنما تكمن لمشكلة في كيفية المواءمة بين الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا أو نفلت منه، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها، على حد تعبير زكي نجيب محمود.[16]

وإذا شئنا أن نحصر حركة النقد الروائي العربي على مدار القرن العشرين من خلال الوقوف عند أهم المحطات والتحولات الكبرى، وجدناها لا تختلف كثيرا عما ورد بشأن تقسيم مراحل النقد الروائي الغربي ،كما جاء في دائرة معارف النظرية الأدبية المعاصرة الصادرة عن مطبعة جامعة تورنتو سنة 1993. المرحلة الأولى هي مرحلة ما قبل البنيوية والثانية هي مرحلة البنيوية التي تمتد من الستينات إلى الثمانينيات، والأخيرة هي مرحلة ما بعد البنيوية التي لا تزال مفتوحة واعدة بإنجازاتها المتلاحقة".[17]

مع اختلاف زمني بين مراحل تحوّلات النقد الغربي والنقد العربي بحكم أنّ الاستقبال والتأثر يتطلب مدّة زمنية فاصلة، فترجمة الكتب النقدية من لغة إلى أخرى قد لا تتوازى زمنيا مع ظهورها في لغاتها الأصل، إذْ يلاحظ الباحثون العرب في هذا المجال أن العديد من الكتب النقدية المترجمة إلى العربية ظهرت ترجماتها متأخرة بعض الشيء ولأسباب مختلفة.

في هذا الشأن، شهد النقد العربي منذ الستينات تقريبا تحولات متلاحقة، إنْ من حيث وفرة الكتب والإنتاج النقدي أو من حيث وضوح الاتجاهات النقدية ـ نسبيا ـ فقد ازدادت حركة الترجمة وتزايد عدد المختصين المؤهلين لذلك[18] ونحن نشهد تزايد الاهتمام بهذا الموضوع يوما بعد آخر، من خلال الكتب التي تُنشر، ومن خلال المؤتمرات والملتقيات التي تعقد خصيصا لطرح قضايا الترجمة في علاقتها بالاستقبال الأدبي عموما، بما في ذلك قضايا النص المترجم واستقبال النظريات والمناهج والمفاهيم المتعدّدة الحقول.

وقد لاحظ سامي سويدان أنّه رغم الأهمية الحاسمة لمثل هذا الإنجاز الذي هو في الحقيقة امتداد لجهود النقاد المتميزة منذ مطلع القرن العشرين إلى اليوم، فإن الاستقبال عن الغرب ميّزه الكثير من الاضطراب والهجنة، من جانب تبني الطروحات والتصورات الغربية كما هي، ومن جانب الممارسة النقدية التي يشوبها الاختلال والمغالطات.[19]

وبالنظر إلى التقسيم الذي سبق عرضه يتضح لنا جليا أن مرحلة ما بعد الثمانينات من القرن العشرين قد ميّزها هيمنة المنهج البنيوي في النقد الروائي العربي رغم كون

البنيوية ـ وفي تلك المرحلة بالذات ـ بدأت في الانحسار والتلاشي في الدراسات النقدية الغربية ، نتيجة ما تعرضت له من انتقادات شديدة من طرف خصومها ، الذين تجاوز طروحاتها المتناقضة أحيانا، إلى أفاق أكثر رحابة وانفتاحا، ثم ما لبثنا أن بدأنا نشهد زحفا من طرف النقاد العرب في مجال الرواية نحو مناهج ما بعد الحداثة،كالتوجّه نحو السيميائية على وجه الخصوص، دون استيعاب لمفاهيمها وآلياتها التي لم تكتمل بعد، ولم تتضح الرؤية بشأنها حتى لدى أصحابها أنفسهم.

وما نخلص إليه هو أن العلاقة بين النّقاد العرب وبين النقد الغربي هي: إما علاقة واعية أو غير واعية ، لكنها موجودة وفاعلة في الحالتين، إذْ لا توجد ثمة ممارسة نقدية عربية يمكنها الإدعاء بأنها تمارس عملية النقد خارج سياق تأثير النقد الغربي أو على الأقل خارج التفاعل معه بشكل من الأشكال ، أما الاختلاف بين النقاد فإنه يكمن في الموقف المتخذ، أو في كيفية التفاعل مع الوافد[20] ومن هذا المنطلق بالذات تطرح قضية شائكة، عما إذا كان بالإمكان ـ والحال هكذا ـ التأسيس لنظرية نقدية روائية عربية، وعن كيفية الإفادة من النظريات الغربية في هذا المجال.

فالتّأصليون حريصون كل الحرص على العودة إلى المنجزات التراثية العربية قصد استثمارها، بما يتلاءم والأنواع الأدبية الجديدة، أما الفئة النقيض فإنها ترى أنّ في ذلك تعطيل لسرعة حركة النقد، حيث ينبغي عمَليًا مواكبة التطوّر الحاصل في النقد الروائي الغربي واستيعابه،بحجة أنّ المعرفة العلمية ذات طابع عالمي، لا تحدّها حدود إقليمية ولا تقتصر على ثقافة دون غيرها.

ومن وجهة نظري الخاصة يبدو لي من التعسّف في حق الرواية العربية في تجلياتها المعاصرة أن تواجَه بمشفرة البلاغة القديمة كما لو أنها مقامة مطوّلة، أو أن يَنظَر إليها على أنها استنساخ لكائن أدبي غربي، ينبغي محاورته بالاعتماد على مناهج غربية في سياقاتها الغربية، وإنما الذي اعتقده هو أن التأسيس لنظرية سردية عربية ينبغي أن تُستمد قواعدها وقوانينها من طبيعة الظاهرة الروائية العربية ذاتها، لا من خارجها.

وفي هذا الموضع، تتجلى لنا حقيقة أنّ الظاهرة الروائية العربية متحوّلة وقد باتت غنية بعناصرها الثقافية العربية، أكثر مما كانت عليه في السابق قبل عشرين أو ثلاثين سنة، وهي من ناحية أخرى غنية من الجانب التقني بما استفاد به الروائيون العرب من تجارب الرواية الغربية، في تراكم منجزاتها الإبداعية وتعدد ظواهرها الفنية والسّردية.

أما المشكلة التي يبدو وأنها تعرقل تحقيق مشروع نظرية روائية عربية فهي مشكلة غياب حوار نقدي بين الأطراف المعنية،واكتفاء النقاد بالمجهودات الفردية وهو ما أشار إليه العديد من الباحثين المنشغلين بهذه القضية، سواء في مقالاتهم أو كتبهم أو من خلال الملتقيات والندوات، لذلك ـ وكما أعتقد ـ ينبغي أن يعاد النظر في آليات الحوار النقدي التقليدي، القائم على رفض رأي الآخر وتقزيمه، بالانتقال إلى مستوى أرقى يتمثل في محاورة الذات قبل محاورة الآخر القريب في إطار السياق الثقافي المشترك، قبل الحديث عن محاورة الآخر البعيد خارج السياق الثقافي المشترك.

ولا يتحقق الحوار الإيجابي مع الآخر ـ الغربي ـ إلا إذا تحوّلنا بجهودنا إلى منتجي للأفكار والمعرفة، لا مجرد مستقبلين ومستهلكين للوافد علينا، ولا مهللين بكل جديد نتوهّمه الأقوم والأفضل، فنتبناه على عجل في انتظار حلول جديدة غريبة ، وثمة يكمن الخلل فيما أعتقد، وهو ما ينبغي تداركه.

المراجع :

1- عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي: معرفة الآخر (مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة) المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،المغرب، ط2، 1996، ص: 5
2- سعيد يقطين، فيصل درّاج: آفاق نقد عربي معاصر،دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1، 2003، ص: 30
3- سعد البازغي:استقبال الآخر(الغرب في النقد العربي الحديث) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص:12
4- المرجع نفسه، ص: 16
5- علي أحمد سعيد (أدونيس): موسيقى الحوت الأزرق(الهوية، الكتابة،العنف) دار الآداب،بيروت، لبنان،ط1، 2002، ص: 324
6- المرجع نفسه ، ص: 06
7- سعيد يقطين ، فيصل درّاج : آفاق نقد عربي معاصر، ص: 31
8- سعد البازغي: استقبال الآخر(الغرب في النقد العربي الحديث)، ص: 129
9- سعيد يقطين ، فيصل درّاج : آفاق نقد عربي معاصر، ص: 32
10- سمير سعد حجازي: النقد الأدبي المعاصر،قضاياه واتجاهاته، دار الآفاق العربية،القاهرة، مصر،ط1، 2001 ، ص: 105
11- منصور قسيمة : الرواية العربية الإشكال والتّشكّل ، دار سحر للنشر، تونس،ط1، 1997، ص: 05
12- جابر عصفور: زمن الرواية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1999، ص: 40
13- المرجع نفسه ، ص ، ن
14- المرجع نفسه، ص : 41
15- عبد الله إبراهيم : السردية العربية الحديثة (تفكيك الخطاب الإستعماري وإعادة تفسير النشأة)، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1، 2003، ص: 211
16- سعد البازغي : استقبال الآخر (الغرب في النقد العربي الحديث)، ص: 33
17- جابر عصفور: زمن الرواية، ص : 74
18- سعد البازغي: استقبال الآخر (الغرب في النقد العربي الحديث)، ص: 123
19- المرجع نفسه، ص : 38
20- المرجع نفسه، ص: 135